الثقافة والسياسة

علمنا القرن العشرون أن الحضارات بائدة، وأن أشكال الثقافة حتى المبنية على تقليد مديد، معرضة للزوال وعاجزة عن الحؤول دون تدفق أمواج البربرية. ولكن الثقافة في البلدان الصناعية المعاصرة التي ادعت أنها جسّدت العلوم والتقنيات، قد تنحرف عن أهدافها وتوضع في خدمة الأنظمة الكليانية التي تتعارض مبادئها وممارساتها وفكرة الثقافة بالتحديد. ففي عهد النازية، لم يتردد أطباء من المشاركة علمياً في ممارسات إبادة، وسرعان ما راح فلاسفة وأدباء ومتخصصون بمجالات مختلفة يؤسسون ايديولوجيات تدعم نظريات مبسطة تعكس غرائز دفينة. وظن بعض العلماء أنهم يعززون تقدّم تخصصهم في حين أنهم كانوا يشاركون ليس في خراب بلدانهم وحسب، بل أيضاً في هدم أساس كل علم بالتحديد وهو الحرية.

لذا، لا يعقل ان تتماهى الثقافة وأي مفهوم متخصص، أكان اسمها ثقافة طبية أم أدبية أم فلسفية أم علمية. إن مشكلة فكرة الثقافة أنها تفكر في الثقافة من حيث هي كذلك، بلا سبب موجب، ولكن، في علاقاتها بمجالات أخرى ومنها السياسة. وألمانيا هي مثال لغنى ثقافتها التي لم تحل، خلال القرن التاسع عشر، دون إخفاق وحدتها السياسية بسبب من نظام كلياني ساد عشر سنوات، مما كشف عن مخاطر الانفصال بين الثقافة والسياسة.

على نقيض ذلك، تبقى الثقافة حية بفضل أناس قد يتجلون على جانب من البساطة وبلا ادعاء ثقافي أو معرفة متخصصة، ولكنهم يجسدون مبادئ وقيما أساسية هم مستعدون للدفاع عنها ومجازفون بحياتهم من أجلها. ما من مركز معلومات أو منظومة آلية، من شأنهما أن يمليا عليهم الخيار والتصرف اللذين يتبنونهما كأنما بلا تفكير، لأنهم يشاركون في الإجماع على الاستشراف الذي يؤلف حياة الثقافة الخفية، متجاوزين بذلك الأشياء المحسوسة، وأنى لنا ألا نقر، في عصر سادت فيه المعتقلات عمليات الإبادة لمعارضين، بالأهمية الثقافية للتضحية التي تكبدها شهداء الحرية؟.

ليست الثقافة، بلا ريب، أساس الأخلاق، ولكن لا قوام لها في معزل عن قيم أخلاقية ليست مجردة وإنما معيشة في إطار زماني معين لحيوات وشهادات نموذجية.

د. جهاد نعمان